

جذور إرماحات الطب النفسي الإيقاعية التطورية (من الإبداع الخاص)
الفصل السابع "عبد السميع الأشرم" رواية "مدرسة العراة"



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2018/07/07

السنة الحادية عشرة - العدد: 3962

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر



مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" (1) تباعا في هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الاثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط".

وهذا هو الفصل السابعصورة عبد السميع الأشرم

"عبد السميع الأشرم"

-1-

العمر يتسرب من بين يدي
وأنا أريد أن أكمل نصف
دينى وأتزوج، أمعائى تثور
على أكثر كلما فكرت فى
الزواج

سألت الممرض وأنا خارج هذه المرة: فأجابت:

= هل أحضر أيضا المرة القادمة؟.

- مثلما قال الدكتور.

= لم يقل شيئا.

- تحضر حتى يقول.

= فى نفس الميعاد؟

- فى نفس الميعاد.

= حاضر،

ما دخل "اضطراب أمعائى" بما يجرى هنا وما يقال؟، لولا أن الطبيب الباطنى هو الذى نصحنى

بالحضور لانصرفت من أول مرة، هذه زحمة ألفاظ، وفرقات مشاعر، وتمثيل، وأنا فيها مثل

الأطرش فى الزفة، لا يصل إلى إلا هرجلة متداخلة، أنتظر أن يأتى على الدور، وهو لا يأتى ابدأ،

أحضر باستمرار، وفى نفس الميعاد حسب التعليمات.

العمر يتسرب من بين يدي وأنا أريد أن أكمل نصف دىنى وأتزوج، أمعائى تثور على أكثر كلما

فكرت فى الزواج، حين عجز الأطباء الباطنيون عن مداواتها أرسلونى إلى هنا وأنا لا أعرف ما هو

نصيبي من هذا الذى يجرى، ما هو ذنبى أنا فى ذلك كله، وأظب على الحضور فى انتظار تعليمات

الطبيب، وفوق كل ذى علم عليم، الوحيد الذى يمكن أن أفتح له قلبى هو إبراهيم الطيب، أنا مؤمن أن

الله حكمة فى كل هذا، والمؤمن مصاب، إبراهيم يذكر الإيمان فى حديثه بين الحين والحين، هو ابن

حلال، أشعر أنه يعرف أكثر مما يقول.

أنا مؤمن بالله وملأكته
وكتبه ورسله وبالقدر خير
وشره، هذا الذى تسميه
استسلاما هو الإيمان بالقدرة.

يعجبني فيك أنك تحفظ كلام
الله وتستشهد به.

- كلام الله ليس للاستشهاد،
هو فعل مائل، أنت مسؤول
عما أنت فيه

- = سمعتك مرة تقول يا إبراهيم إن الإيمان هو الحل.
- بلا شك.
- = أظن أن ما يجرى هنا ليس له علاقة بالدين.
- أى دين؟
- = إن الدين عند الله الاسلام، هل تشك فى هذا؟
- الاسلام هو دين الفطرة، والفطرة فى كل دين.
- = ما علاقة ما يجرى هنا بالاسلام؟
- نحن نبحث هنا عن حقيقة الفطرة السليمة.
- = لم ألاحظ أن أحدا يبحث عن ذلك أمامى.
- أنت لا تريد أن تلاحظ أى شئ يا عبد السميع، أنت تنتظر الوحي من الطبيب، لا من الله، ولا منك.

= أنا مؤمن، ومع ذلك فإن أمعائى تؤلمنى وتتغص على عيشتى، وتحول دون أى متعة، هى تمنعنى حتى من الزواج.

- لست مؤمناً كلك يا عبد السميع.
- = استغفر الله، من كَفَر مسلماً فهو كافر.
- أنا لا أكفر، ربما أكفر أمعاءك.
- = لا تسخر منى، أنت تعلم ما بى، كيف تكون الأمعاء كافرة يا أخى بالله عليك؟
- إسألها.

هذه مسخرة، كيف يكون المرض كفراً؟، المرض ابتلاء، ماذا يقول هذا الإبراهيم؟، حسبته قانتا جادا فإذا به يتندر على دين الله، أستغفرك ربي وأتوب إليك، ما الذى أوقعنى هنا؟، وما الذى يمنعنى من التوقف عن المجئ مادامت أمعائى لا تتحسن، وما دام الطبيب لا يسأل فى؟ من أسأل؟ هل أستشير طبيباً آخر؟ أحياناً يخيل إلى أن أمعائى تتكلم بهذا الألم فإذا سكتت أحسست أن دوامة تدور فى عقلى حتى أكاد أفقد توازنى، لابد أن هناك علاقة ما بين هذا وذلك، رضيت أن أحضر رغم عدم اقتناعى الظاهرى، شئ ما يدفعنى للحضور غير أمعائى، أحس بالرغم من كل شئ أن لى دوراً آخر فى هذه الحياة لا يحول بينى وبينه إلا هذا الألم المستمر، أعتقد أحياناً أن هذا الدور هو "الزواج" لأزيد من ذرية المسلمين حتى يتباهى بهم الرسول صلوات الله عليه يوم القيامة، من يضمن لى أن ينشأوا مسلمين والفساد مستشرٍ هكذا؟ لا بد أن يزول الفساد أولاً، على أن أساهم فى أن يزول الفساد حتى ينشأ أولادى مسلمين، كيف؟ لابد من أن يخبرنى الطبيب كيف أتخلص من هذه الآلام حتى أتفرغ لتنفيذ ما أعتقده، أمعائى تمنعنى، ليس أمامى إلا الصبر، حتى الممرض يرد على أسئلتى بنفس الطريقة.

= لم يقل لى الطبيب شيئاً هذه المرة.

- سوف يقول عندما تحين الفرصة.

= نفس الميعاد؟

- نفس الميعاد.

= حاضر.

- 2 -

- حاضر حاضر؟، ما هى الحكاية يا عبد السميع، ألن تتعلم كيف تقول لا ولو مرة واحدة، أين

إيمانك الذى تختبئ وراءه؟، أين أنت؟

= ماذا تريد يا إبراهيم؟

لا إله إلا الله يا أخى!!
- التوحيد الحقيقى مدخل
العروة الحقيقة

.... وإن من العجاجة لما

يشفق فيخرج منه الماء.

= من أين لك كل هذا؟

- من كتاب الله.

= كأنك تحفظه

هل تعرف معنى إحساس

شابه طفل وحيد ضائع ضائع

ضائع؟ يرفض كل المسلمات

ويرفض كل التقليد ويرفض

التصريح ويرفض العيش

ويرفض الرضى، تريدنى أن

أوقف إحساسى لأرجع إلى

هذا العهد القاسى الظالم

الساحق، إحساسى الآن مستقر

أمن

- تتحدث عن الدين ولا أرى إلا شحوبك وخوفك.
= لا أفهمك.
- أحس أنك تنزل نفسك بلا مناسبة، أحس بامتهان الإنسان فيك وأنا أراك مرتعدا في انتظار أى لفتة أو تعليق.
- = أنا لست خائفا، أنا مريض والطبيب يعالجنى وأنا رهن تعليماته.
- نسيت نفسك يا عبد السميع بشكل بشع.
= ماذا تعنى؟
- أعنى ما قلت.
= ماذا تريد منى؟
- أكره مذلتك، كأنك تذلنى أنا أيضا، لا تنزل نفسك فقط.
= مالك أنت؟ ثم بأى حق؟
- بحق حبى لك.
= هذا من فضل الله.
- أنت لا تعرف فضل الله .
= عندك يا رجل، أنا مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره، هذا الذى تسميه استسلاما هو الإيمان بالقدر.
- لم يخلقنا الله آلات خرساء، أنت لست هنا من أصله يا عبد السميع.
= لماذا أنت عنيف هكذا يا إبراهيم؟ أنا أخاف منك، أخشى اقتحامك.
- لا أستأذن الناس لأحاول معهم.
= تحاول ماذا يا رجل؟، كفرت أمعائى، وتكاد تكفرنى، وتقول تحاول، هل بيدك مفاتيح جنة خاصة؟، بأى حق يا إبراهيم؟
- بحق غيظى منك وحبى لك، أنت أعمى يا عبد السميع، أعمى؟، بل على قلوب أقبالها.
= يعجبنى فيك أنك تحفظ كلام الله وتستنشهد به.
- كلام الله ليس للاستشهاد، هو فعل مائل، أنت مسؤول عما أنت فيه.
= أنا لم أمرض بخاطرى،
- إنى أخجل من امتهانك لما كرمك الله به.
= لا إله إلا الله يا أخى!!.
- التوحيد الحقيقى مدخل الحرية الحقيقية،
= لا راد لقضاء الله وأنا صابر.
- رجعنا للاستسلام.
= أنت تئسنى يا إبراهيم.
- وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء.
= من أين لك كل هذا؟
- من كتاب الله.
= كأنك تحفظه.
- لونتك كالموتى يا عبد السميع
= وهل أنا مسؤول عن لوني الميت أيضا؟
- نعم.

خوفه كصيبه من السماء يا
إبراهيم، ما دمت تتكلم
بالكتاب والحكمة، فيه
ظلمات ورمح وبرق، لما
أظلم على لم أقم من كبوتى،
وضعت رأسى تحت جناحى
مثل مالك الحزين حتى لا
أرى شيئا ونسيت كل ما
كان

سوفه أشفق بحبل من أمعائى
على منصة الضلال الذى
تعيشون فيه جميعا، جنت
أشكو من أمعائى فإذا بى
وسط جماعة من المنجلين
الكفرة،

رجعت إلى هواجس
المراهقة دون إنذار، كنت
قد استرحت بعد تلك الخبرة
التي أجابتنى عن كل الأسئلة

= دلتى على الطريق يا أخى إن كنت تعرفه بهذا الوضوح.

- لا يموت إنسان مثلك بالصدفة.

= أنا لا أفهم شيئاً سوى أنى مريض.

- فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً.

= كأنى منهم بالمرض!!

- بصراحة أنا أشك أنك تقرأ القرآن مهما رددته لسانك.

= ترعبنى يا ابراهيم.

- تخشانى والله أحق أن تخشاه.

= والله العظيم أنا غير فاهم،

- إن شا الله ما فهمت.

-3-

لو أن أى واحد آخر منهم قال لى ما قاله ابراهيم لرفضته واحتقرته وتركته، ابراهيم كاد ينزع جذورى دون هواده أو تردد، من أين له بهذا اليقين وهذه القوة؟، ثم ما معنى هذه اللغة المحيرة التى يستعملها؟، يرجع بى إلى أيام زمان ويسألنى متى... خفت حتى مت؟، من ذا يستطيع أن يتحمل ما تحملته من خوف وحيرة وألم ووحدة؟، تدعونى يا ابراهيم أن أوقظ إحساسى من جديد؟، قيام القيامة أهون من هذا، لو علمت ما كان ما عملت فى ما عملت، أنت تتكلم فى خلو بلادك، مَنْ عَلَى البر شاطر، هل تعرف معنى إحساس شاب طفل وحيد ضائع ضائع؟، يرفض كل المسلمات ويرفض كل التقليد ويرفض التهريج ويرفض العبث ويرفض الرفض، تريدنى أن أوقظ إحساسى لأرجع إلى هذا العهد القاسى الظالم الساحق، إحساسى الآن مستقر آمن، تسألنى عن الخوف الذى أماتتى وكأنك تعرفه، لو كنت تعرفه لِمَا سألتنى، خوف كصيب من السماء يا ابراهيم، ما دمت تتكلم بالكتاب والحكمة، فيه ظلمات ورعد وبرق، لِمَا أظلم على لم أقم من كبوتى، وضعت رأسى تحت جناحى مثل مالك الحزين حتى لا أرى شيئاً ونسيت كل ما كان، أخشى أن أخرج رأسى وأنت وغيرك تنربصون بى كالثعلب، لا، لن أرى ولن أفهم إلا ما ما أرى وأفهم، هذا آمن.

منذ صدر الشباب لم أسمع صوتى الداخلى هذا أبداً، ما الذى أيقظه هكذا؟، أنت يا ابراهيم أم أمعائى؟، بداخلى شئ كان يحاورك يا ابراهيم من ورائى، أهذا هو نهاية المطاف؟، سوف أشنق بحبل من أمعائى على منصة الضلال الذى تعيشون فيه جميعاً، جئت أشكو من أمعائى فإذا بى وسط جماعة من المنحلين الكفرة، صبرت على مسخرتهم على أمل أن أجد علاجى، والتمست لهم الأعدار، ليس على المريض حرج، ولِمَا أنست فى ابراهيم خيراً قلبَها على رأسى وأيقظ هواجسى، لماذا الحيرة وكل شئ وارد فى كتاب الله.

- ولكنه يعرف كتاب الله ويتكلم به أكثر منك.

- يتكلم به فى غير مواضعه.

- وهل أنت وصى على مواضعه.

رجعت إلى هواجس المراهقة دون إنذار، كنت قد استرحت بعد تلك الخبرة التى أجابتنى عن كل الأسئلة، هذا هو ابراهيم، الله يجازيه، يقلبها على رأسى فيثور فكرى وكأنى لم أحل شيئاً ولم أر شيئاً ولم أسمع شيئاً، مصيبة وحلت بى، ولا أدرى السبيل إلى التخلص منها، هل أكف عن الذهاب حتى لو احتفظت بفضلات أمعائى حتى الموت؟، هل أراجع طبيبياً باطنياً آخر لعلى أجد دواء حديثاً غير ما تناولته قبل ذلك؟

المشكلة لم تعد مشكلة بطنى وأمعائى، هذا الوسواس الخناس حل محلها، من الذى أرجعه بعد أن

أتانى اليقين لهما وحماً؟،
سوفه أذهب لأزداد إيماناً
حين أواجهه واحداً واحداً
بكل أسلحة الدين والحرمان
والخلال

فُتِحَتْ عَلَى أبواب الماضى،
دخلت الذكريات تصعبنى
بلا رحمة، أعيش مشاعر
المراهقة بلا استئذان

الأدهى والأمر أن خلايا
جسدى قد استيقظت مع
عودة أفكارى القديمة
وتساؤلاتى الحيرى، عدت
أتأمل النساء فى الشوارع
وأحس بطراوة أجسادهن فى
الأتوبيسات فلا أتشجع

أتانى اليقين لحما ودما؟، سوف أذهب لأزداد إيماناً حين أواجههم واحدا واحدا بكل أسلحة الدين والحرام والحلال، لن تذلى أعمائى هذه، وسوف ترى يا إبراهيم أى مصيبة ستلحق بك إذا تعرّضت لى مرة أخرى، إذا ما حاولت أن تجعلى "أفكر" ثانية، لولا أن أمرنا الله بالأخذ فى الأسباب لذهبت إلى غير رجعة.

-4-

فُتحت على أبواب الماضى، دخلت الذكريات تصفنى بلا رحمة، أعيش مشاعر المراهقة بلا استئذان وأريد أن أنتقم من إبراهيم، كلما اقترب منى تحرك فى غول الانتقام وأنا لا أستطيع أن أستغنى عنه، الأدهى والأمر أن خلايا جسدى قد استيقظت مع عودة أفكارى القديمة وتساؤلاتى الحيرى، عدت أتأمل النساء فى الشوارع وأحس بطراوة أجسادهن فى الأتوبيسات فلا أتسنج، هل هذا هو الإحساس الموصل للإيمان الذى تتحدث عنه يا إبراهيم؟، الله يخيبك، هذا وحده دليل على أن ما تقوله، وما نحن فيه، إنما يوقظ الشيطان فى يا أخى، أنظر إلى بطاقتى الشخصية ولا أصدق أن هذا تاريخ ميلادى، كأنى توقفت عند سن السابعة عشر فى إجازة طويلة، أمانى الوحيد كان فى ثقتى بحواسى الخمس، كانت عندى الشجاعة أن أظل واضحا عنيدا لا أتصرف إلا بما أعتقد، ولا أَرْضخ إلا لمنطقى الخاص، لا يمكن أن تتصور يا إبراهيم معنى أن تجعل العقل سيدك وهاديك الأوحى فى هذه السن المبكرة فى بلد ريفى وسط عائلة تقرر أعظم قراراتها حسب نصيحة عرّافة أو بمحض الصدفة، مع ذلك ظلت أقول.. "لا" بكل مسؤوليتها وعنفها، وحدة قاسية وخطيرة لا يحتملها إنسان "يُحس" كما تقولون، احتملتها سنوات وحدى، سنوات طويلة طويلة طويلة، اكتشفت عجز الحواس بالمصادفة وأنا أنظر فى الميكروسكوب فى حصة الأحياء، ماذا لو كانت حقيقة الوجود تحتاج إلى ميكروسكوب أدق من هذا الميكروسكوب ولكنه لم يُخترع بعد؟ أخذت أراجع علاقتى بالكون - وأحمد الله أن الطب النفسى ساعته لم يكن قد انتشر بهذا الشكل وإلا لحكموا على بالجنون دون استئذان، تريد أن تعيدنى إلى الجنون يا إبراهيم؟، أنت لا تعرف ما كان، أحسست أيامها بقدرة حواسى أن تُخَلِّقَ حواسا جديدة لها قدرة الميكروسكوب على رؤية ما لا يرى بالحواس القديمة العاجزة، مضيت وحدى أطرق أبواب الوجود أبحث عن اليقين بهذه الحواس الجديدة الغامضة دون أن أهرب إلى الحل الأسهل أو أرضى بالإيمان بشئ جاهز، ضيعتُ سن البهجة والمغامرة فى سعى جاد وحيد، هل تريد منى يا إبراهيم أن أرجع إلى هذا الألم وتلك الحيرة، سرت عاريا حافيا ضائعا تغوص قدمائى فى أرض رخوة بلا قاع، كنت أغوص فى رخاوتها واختلاط معالمها ولكنى لا أشك فى بوصلته توجّهى، سنوات طوال يا إبراهيم عشت فيها حياتين إحداهما سرية وليست مظلمة كما تتصور، ليس كل ما فى السر هو مظلم، أنت وأمثالك لا تعرف ثمن رفض المسلمات فى هذه السن، الوحيدة التى كانت تشاركنى الحيرة وتقبلنى دون شروط كانت هنية: خادمة سمراء ذات شعر أجدد، كانت تعاني من نوبات يقولون عنها لمسة أرضية، أحببتنى وسمحت لى أن أفرغ حيرتى بين ذراعها، أن أضع رأسى على صدرها دون صفقات مذلة، أن أتعرف على جسدى فى حضنها.

تفتح على يا إبراهيم بابا صفقتة ورائى حتى صار جزءا من حوائطى، قل لى بربك مَنْ على الأرض كان يستطيع أن يتحمل كل ذلك وحده دون أن يجن؟ أنفذننى حصن هنية من الجنون صغيرا فأين الحصن الذى يحتوينى الآن إذا أنا سمعت كلامك؟، لا بد أنك تعرف كم هو ساحق ألم الوحدة . ذهب كل شئ فجأة ، وذهبت هنية أيضا إلى سيد آخر يدفع ربع جنيهه أكثر مما يدفع أبى، مع أنها كانت الوحيدة التى لم تقبل مقابلا لما أعطتني، أعطتني نفسى وأنا فى حضنها، أجّلت ضياعى واستسلامى معا، كانت أثناء نوباتها تتكلم عن رفيق لها تحت الأرض، نصرانى الديانة، كنت أصدقها وأشعر أن داخلها قد تصالحت فيه الأديان مع بعضها البعض أصدق وأعمق، كانت هنية تسمع لى

أخذت أراجع علاقتى بالكون - وأحمد الله أن الطب النفسى ساعته لم يكن قد انتشر بهذا الشكل وإلا لحكموا على بالجنون دون استئذان

أحسست أيامها بقدرة حواسى أن تُخَلِّقَ حواسا جديدة لها قدرة الميكروسكوب على رؤية ما لا يرى بالحواس القديمة العاجزة

مضيت وحدى أطرق أبواب الوجود أبحث عن اليقين بهذه الحواس الجديدة الغامضة دون أن أهرب إلى الحل الأسهل أو أرضى بالإيمان بشئ جاهز

سرت عاريا حافيا ضائعا تغوص قدمائى فى أرض رخوة بلا قاع، كنت أغوص فى رخاوتها واختلاط معالمها ولكنى لا أشك فى بوصلته توجّهى

وتفهمنى وتسمح لى بجسدها الظاهريّ بين الحين والحين دون هواجس الذنب أو وعيد الجحيم، ثم ذهبت لسيد آخر رغم أننى كنت أحتاجها أكثر منه، سيد كل ميزته أنه يدفع ربع جنيهه أكثر، تركتني وحيدا أبحث عنى من جديد، سنين طويلة وأنا أتقلب بين الكتب والوحدة والمساجد والكنائس والضياع، سنين طويلة أطرق كل باب يا إبراهيم بكل أحاسيس اليقظة الجياشة وليس لى من خبرة صادقة مع مخلوق إلا مع هنية، لا أبى ولا أمى ولا أصدقاء فى سنى، ولا أحد، أذهب إلى المقابر وأنام تحت شجرة التوتة وأركب النورج وأجنى القطن، رغم كل ذلك لم أكن مثل العيال ولا مثل الشباب، يحسبونى معهم وأنا لست معهم، دائم البحث والصبر واليقظة، ظللت أحافظ على أحاسيسى لى خشية أن يحسوها فى صندوق مغلق ليس له مفتاح، سنين طويلة طويلة كأنى أعيش الدهر أعيشه عدة مرات، كيف تريدنى أن أعود إليها ثانية بعد أن وجدت إجابتى - فجأة - على كل الأسئلة؟، سكنت كل هواجسى على أرض ملساء صلبة بلا معالم، سلّمت الدهشة والتفكير والحيرة والرغبة إلى صاحب مجهول، وجدت الإجابات الواضحة الجاهزة على كل الأسئلة دون استثناء.

- كل الأسئلة؟

= كل الأسئلة.

- كل الإجابات؟

= كل الإجابات.

- فما الذى أتى بك إلى سوق الأسئلة هذا من جديد؟

- أمعائى.

خذ من القرآن ما شئت لما شئت، كل الأسئلة يا إبراهيم يمكن أن تجد لها جوابا فى هذا الكتاب، فلماذا الحيرة؟، ولماذا البحث؟، ولماذا الجرى والضياع؟ ولماذا أنا هنا؟ ما الداعى لأن نتحدانى وتحاول إرجاعى إلى غرور الشباب لمجرد أن أمعائى تؤلمنى ولا أستطيع تنظيم عملها، لو أنك مررت بما مررت به يا إبراهيم ورأيتهم حقيقة واضحة تُمسكك باليد وتُسَمع بالأذن وتُرى بالعين لعرفت مصدر اليقين الذى أنا فيه، ولكففت عن ضربى بسيط سخريتك التى تغلف بها نصيحتك وتقلب بها وجدانى.

- 5 -

هى المصادفة ، كانت مجرد مصادفة ، ذهبت إلى "هؤلاء الناس" أتحدى خداعهم، أقفلنا الأبواب والنوافذ وأحكمنا الستائر وأحضرنا البطاطين وسددنا بها أى منفذ أو شبهة منفذ حتى لا يخالج أى منا شك فى حقيقة ما يجرى ولا يتصور أنه وهم أو إيهاء، أخذنا نقرأ فى كتاب الله، لا طلاس ولا طقوس غريبة، وضع الأكل ثم أطفئت الأنوار، أخذ الأكل ينتقل من على المائدة إلى أفواهنا مباشرة - مباشرة يا إبراهيم دون استعمال الأيدي، الصحاف لا تفرغ مما بها مهما أكلنا، شعبنا دون أن ننقص من الأكل شيئاً ثم رفعت الصحاف دون أن نقوم من مجالسنا.

أخذنا نذكر اسم الله حتى حضر خادم الاسم بصوته الإنسانى العادى ورعبت يا إبراهيم رعب الأولين والآخرين، لكننى علمت فى نفس الوقت أنه قد آن الأوان لزوال حيرتى إلى غير رجعة، هذه أشياء لا جدال فيها ولا خيال ولا أحلام، جاعنى اليقين حتى ملمس يدى، هاهو ذا يتكلم ويرد على الأسئلة دون الحاجة إلى العناء والبحث والحيرة وإعادة البناء كما تقولون، جاعنى جاهزا وكلمنى كما

أسمعك تماما مازلت أذكر حوارنا:

- هداك الله يا عبد العاصى.

= أنا عبد السميع.

- هذا اسمك على الأرض، أما اسمك عندنا فهو عبد العاصى.

لأبد أنك تعرفه كم هو ساحق ألم الوحدة .

كانت هنية تسمع لى وتفهمنى وتسمح لى بجسدها الظاهريّ بين العين والعين دون هواجس الذنب أو وعيد الجحيم

ذهبت لسيد آخر رغم أننى كنت أحتاجها أكثر منه، سيد كل ميزته أنه يدفع ربع جنيهه أكثر، تركتني وحيدا أبحث عنى من جديد، سنين طويلة وأنا أتقلب بين الكتب والوحدة والمساجد والكنائس والضياع

يحسبوننى معهم وأنا لست معهم، دائم البحث والصبر واليقظة، ظللت أحافظ على أحاسيسى لى خشية أن يحسوها فى صندوق مغلق ليس له مفتاح

- = لم أعص أحدا ، أنا أبحث عن يقين من داخلي،
- أنت عاص من يومك، وقد آن الأوان.
- = من أنت؟ من أين جئت؟ كيف جئت؟
- لا نظهر إلا بناء على طلب الناس الصالحين، منا المؤمنون ومنا الكافرون ،
- = ماذا تريد....
- أريد هدايتك لانصرف عنك.
- = يا ليت ...
- مددت يدي يا ابراهيم وسلمت يدي عليه، لحما ودما مثلك تماما، سلمت على يده مثلما أسلم على يدك، من يومها وأنا فى حال من الطمأنينة والسكينة، مثلما ترانى.
- أين السكينة يا عبد السميع، إنه العمى.
- = سمه ما شئت لكننى مرتاح.
- وأمعأوك؟
- = ما لها أمعأى، مرض مثل كل الأمراض.
- لكن أطبأوك الذين أرسلوك إلى هنا لم يجدوا بها أى مرض مما يعرفون.
- = وما ذنبى أنا أتحمل نتيجة جهلهم.
- أنت أطعتهم وسمعت كلامهم .
- = لم يكن أمامى بديل.
- إذن فلنأخذ الفرصة ونتعرف على خلقة ربنا.
- = لست فاهما.
- سوف تعرف بنفسك، متى خرجت من مخبئك، لقد اختبأت فى جحر حرباء وتلفعت بأمعائك هربا من مواجهة ذاتك ومعايشة إحساسك.
- = ما فائدة الإحساس وهو الجحيم ذاته؟
- الجحيم هو الضياع والعدم.
- = أشعر أننى لو نجحت فى أن أكف عن المجئ هنا فلسوف أهنا بما أنا فيه تماما.
- أمعأوك أصدق منك، سوف تأتى بك قسرا...
- = خائف.
- وذليل.
- = كفى يا ابراهيم.
- عبد السميع يا أشرم.
- = نعم.
- أنت حر.
- = لا أعرف معنى لهذه الكلمة.
- 6-

سكنت كل هواجسى على أرض ملساء صلبة بلا معالم، سلمت الحشمة والتفكير والحيرة والرغبة إلى صاحب مجهول، وجدت الإجابات الواضحة الجاهزة على كل الأسئلة دون استثناء.

خذ من القرآن ما شئت لما شئت، كل الأسئلة يا ابراهيم يمكن أن تجد لها جوابا فى هذا الكتاب، فلماذا الحيرة؟، ولماذا الهمس؟، ولماذا الجري والضياح؟ ولماذا أنا هنا؟

سوف تعرف بنفسك، متى خرجت من مخبئك، لقد اختبأت فى جحر حرباء وتلفعت بأمعائك هربا من مواجهة ذاتك ومعايشة إحساسك

لو أن الطبيب هو الذى قال لى ما قاله ابراهيم لشككت فى نواياه، لو أنه كان نقاشا عقليا مع كمال أو غالى أو ملكة لقات ملحدين كفرة، أو على أقل تقدير خائفين ضالين، ابراهيم الطيب هزنى من جذورى، شدا فانخلعت من أرض الجان، ثم إنها لم تجد طريقا إلى أرض الإنس بعد، لا أستطيع أن أرجع إليهم بعد أن أفشيت السر فوق المحذور، ولا أستطيع أن أواصل معكم لأنى لا أطمئن لأى منكم ولا لأى مخلوق، من أنتم يا ابراهيم وماذا تفعلون وإلى أين؟، هل تؤمنون أم تكفرون؟، أنا لا أعرف

شيئا من كل ما يجرى أنت الذى أثرت الحكاية دون مناسبة، نكأت الجرح القديم، ماذا عندك تقدمه لى حتى أستطيع أن أعيش؟

أقر واعترف أنني بدأت أقبل أن الموضوع لم يعد موضوع أمعائى، هذا من فضلكم وهو هو مصيبتى، حسبت أن إخواننا من عالم النار سوف يوصلوننى إلى عالم النور، ولكن أمعائى ساقنتى إليكم ولا حول ولا قوة إلا بالله، اندفعت شوطا فى جماعة الحكم بما أنزل الله، كنت أؤمن أن من لا يفعلها فهو الظالم الفاسق الكافر، وكنت أنتظر مرور الأيام حتى يشتد عودى فأقتل الظلمة الكفرة الفسقة بلا تردد، ولما قامت الثورة ولوحت بالدين شعارا بين الشعارات فرحت فرحا شديدا ولم أكن قد تخطيت الصبا، تراجعتُ شخصا قبل أن تتراجع الثورة، دهمتتى المرافقة بكل تساؤلاتها وعبئها وحيرتها، عشت السنين الطويلة أعانى وحدى ولا يخفف عنى إلا حزن هنية بين الحين والحين.

= هل أنت مؤمن يا إبراهيم.

- الحمد لله.

= ماذا تعنى؟

- وجدت أنني لا أستطيع إلا أن أكون مؤمنا.

= نعم؟ نعم؟

- صدقنى يا عبد السميع - المسألة أبسط من كل ما تتصور.

= والمسيحيون واليهوديون والشبيوعيون؟

- فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فيهم وفيهم..

= يذهبون إلى النار؟

- من لا يؤمن فهو فى النار، لا يحتاج الأمر أن ينتظر حتى يذهب إليها..

= ترجعنى إلى ما هربت منه.

- بل إلى نفسك.

.....

منذ حدث ما حدث وأنا لا أنام، كيف حدث ما حدث.

عقب تعليق بسمه بعد توجيه السؤال من إبراهيم، انفجرت كالبركان فى ثورة هائلة، كانت بسمه

فى ثورة غضب ساخط، التفتت إلى فجأة وصاحت.

- فعلا دليل أعمى وجبان، لا تريد أن ترى أو تحس، أنت تجعلنى أشمئز أنى من مثل جنسك.

هكذا يا بسمه؟ حتى أنت يا بسمه؟، أنت الصغيرة الرقيقة الجميلة؟ أنتم لا تعلمون شيئا وسوف

ترون يا أغبياء من الذى يحس، أنا أحبس إحساسى وراء أسمك الجدران حتى لا أقتلكم، هاكم أنا.

.....

مطروح على الأرض، يمسك بأطرافى خمسة، منهم إبراهيم وبسمه، أنظر حوالى أشاهد آثار ثورة

الإحساس، لمحت صورتين كانتا على الحائط وقد تحطمتا تماما، كراسى مقلوبة، قميصى ممزق

وجسمى كله يتصبب عرقا.

ماذا حدث؟ كنت مازلت فى كامل وعيى، هذا البركان الذى ثار كان نائما فى قمم الخوف والتسليم،

كنت محقا حين تحكمت فيه بكل ما أوتيت من قدرة على الهرب والتأجيل، كيف كنت أجروء أن أسمح

بهذا وأنا وحدى، هذا هو إحساسى: فح كما خلقه الله، فماذا تريدون؟ أنتم تسمحون لإحساسكم بالتجول

لأنه ليس بداخلكم هذا العملاق، أنتم لستم مضطرين أن تحبسوه فى قمم، ليس عندكم مثله، هل عرفتم

لماذا كنت بعيدا متهما باللامبالاة والجبن؟

أقر واحترفه أنني بدأت أقبل أن الموضوع لم يعد موضوع أمعائى، هذا من فضلكم وهو هو مصيبتى، حسبت أن إخواننا من عالم النار سوف يوصلوننى إلى عالم النور، ولكن أمعائى ساقنتى إليكم ولا حول ولا قوة إلا بالله

اندفعت شوطا فى جماعة الحكم بما أنزل الله، كنت أؤمن أن من لا يفعلها فهو الظالم الفاسق الكافر، وكنت أنتظر مرور الأيام حتى يشتد عودى فأقتل الظلمة الكفرة الفسقة بلا تردد

لما قامت الثورة ولوحت بالدين شعارا بين الشعارات فرحت فرحا شديدا ولم أكن قد تخطيت الصبا، تراجعتُ شخصا قبل أن تتراجع الثورة، دهمتتى المرافقة بكل تساؤلاتها وعبئها وحيرتها، عشت السنين الطويلة أعانى وحدى ولا يخفف عنى إلا حزن هنية بين الحين والحين.

الآن؟، كيف أدخله ثانية إلى القمقم؟، ها هو ذا أمامكم لا يقدر عليه أربعة رجال أشداء وطفلة، أنت يا بسمة السبب ولعلك الآن تقدرين لماذا كنت جباناً وذليلاً وأعمى، عندك حق، وأنا أيضاً عندى حق، لو أطلقتها يا بسمة لحطمت العالم وحطمت نفسى، لو أحسست لصافحتُ النساء بالإمساك بأثدائهن مباشرة، لو سمحت بما يعتمل بداخلى من أحاسيس لا أعرفها، فسوف أقتل بلا رحمة.

= هذا أنا فماذا تريدون..؟

- لا، ليس أنت، هذا نصفك السجين وقد انطلق بعد طول نسيان وهوان.

= هذا هو إحساسى الذى تطلبونه.

- هذا انفجار وليس إحساساً.

= لا أعرف غيره.

- هذا جنون يا عبد السميع.

= إحساسى هو الجنون يا أخى، ماذا تريدون؟ إحساس على مقاسكم، لم يعجبكم عقلى وحكمتى

ودينى، ولا يعجبكم الآن إحساسى، تسمون العقل بلادة وتسمون الإحساس جنونا، ماذا تريدون؟

- أنت تتفجر لتخيفنا حتى نبتعد كى تبرر هربك القادم وموتك الجديد.

= ... أنا أنفجر،... أموت.أذهب فى ستين مصيبة، ماذا تفعلون أنتم؟

- لا تمهد لإلغاء إحساسك من جديد هرباً من انفجار أنت مسؤول عنه.

= ليس عندى إلا هذا، تقبلوه أو تتركونى فى حالى.

- تفرض علينا أحد نصفيك.

= نصف، ثلث، ربع، لا شأن لى بشئ، عليكم أن تختاروا، ليس عندى شئ آخر.

- أنت الذى تختار.

= لا أستطيع، لم أستطع، لن أستطيع، لملمنى ثانية حتى أنصرف فى أمان.

-7-

جننتُ والحمد لله، هذا هو آخر المطاف بك يا عبد السميع يا ابن الأشرم، حضرت أشكو من ألم أمعائى فشككونى فى وجوده، ثم جننوني أخيراً، نهايتى السراى الصفراء مثل عمى وابن عمتى، رأيت خيالاتهم فى حلم أمس، عمى يفتح ذراعيه لاستقبالى فى مدينة مسحورة تحت الأرض، صُنعت بيوتها من إفرازات البشر، وابن عمتى يزفنى زفة العوالم برق كبير مصنوع من جلد إنسان يجيد الإحساس، عريس بلا عروس، ذهبت إلى الطبيب أتخلص من ألم أمعائى حتى أتزوج، وهأنذا أتزوج الجنون وأزف بلا عروس فى مدينة فضلات المشاعر وأنقاض الفن، هل هذا هو العلاج الحديث يا سيدى يا صاحب صولجان العلم ولايس عباءة الطب؟، هل هذا هو الإيمان الذى تدعوننى إليه يا إبراهيم؟، هل هذه هى نهاية المطاف؟

- لا... ليست نهايته بل بدايته يا عبد السميع.

= أنت يا إبراهيم مسئول عن كل ماحدث من صاحبك هذا الغشاش مدعى الطب.

- وأنت؟

= سلمتكم نفسى يا إبراهيم، وسأنتهى مثل عمى وابن عمتى فى السراية الصفراء.

- تنتهى حيث تريد.

= يا أخى كفى سخفاً، أريد!!..أريد!!..أريد!!... أنا لا أستطيع أن أريد أصلاً.

- لعلها بداية الطريق إلى الله، إن شئت.

= كفى سخرية يا إبراهيم وخداعاً، إياك أن تخلط فى الكلام.

- ما حدث حدث بإرادتك وفى وسطنا وفى كامل وعيك،

أنتم لا تعلمون شيئاً ولسوف تعلمون بالتحجول لأنه ليس بداخلكم هذا العملاق، أنتم لستم مضطربين أن تحبسوه فى قمقم، ليس عندكم مثله، هل عرفتم لماذا كنيت بعيداً متهماً بالأمبالاة والجبن؟

هذا البركان الذى ثار كان نائماً فى قمقم الخوف والتسليم، كنيت محققاً حين تحكمت فيه بكل ما أوتيت من قدرة على الصبر والتأجيل

أنتم تسمعون لإحساسكم بالتجول لأنه ليس بداخلكم هذا العملاق، أنتم لستم مضطربين أن تحبسوه فى قمقم، ليس عندكم مثله، هل عرفتم لماذا كنيت بعيداً متهماً بالأمبالاة والجبن؟

- = إرادتى؟ مازلتَ تقول إرادتى؟
- مجيئك هنا وإصرارك، هو الذى أحدث كل ذلك، مجيئك وانتظامك هما إرادتك.
- = إرادتى... أن أجن؟، طول عمرى أخاف من جنون أهلى.
- لن تستطيع أن تدع نفسك ثانية يا عبد السميع.
- = أستطيع، لا أستطيع.... ماذا أستطيع؟، لم أعد أعرف.
- ... أن تعيش.... وتؤمن.
- = إياك أن تأتى بهذه السيرة من جديد. أنا مجنون فاحذرنى، قد أقتلك فى أى لحظة.
- معك حق.
- = إسمع، إما أن أنتحر أو أقتلك، أنت السبب فى كل شىء.
- أحمد الله أنى ساهمت فى عمل الخير.
- = تحطمونى... وتشتتون بى... ثم تسمون الانتحار عمل الخير.
- ما رأيك فى انتحار مبتكر.
- = بماذا اتخرف أيضا يا إبراهيم؟ ما هذا الذى تقوله؟ هل يوجد موديل "أحدث للانتحار"؟
- أن تقتل القديم فيك، فتولد من جديد "ربى كما خلقتنى"
- = إذا مات القديم فماذا يتبقى....
- يتبقى الجديد: الأصل.
- = غير فاهم، من أين أبدأ؟
- تبدأ من حيث أنت، كما خلقك بارؤك
- = قلت لك غير فاهم.
- أحسن، هذه أمور لا تفهم.
- 8-

طريق صعب قاس رائع مرعب، بصر إبراهيم أن أعملها وحدى، لماذا؟، يقول أن هذا هو السبيل الوحيد لتجنب الشرك، ماذا لو ذهبت إلى شىخى القديم؟، هل يقتلنى أم يلفظنى؟، سوف أذهب ولو لأطلب منه العفو.

- = جئت يا سيدنا أطلب المغفرة، لقد بحت بالسر، وهأنذا أدفع الثمن .
- يغفر الله لنا ولك يا بنى.
- = ماذا أفعل الآن؟
- الله يهدى من يشاء .
- = ولكنهم يقولون أن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.
- الله يهدى من يشاء أن يهتدى يا بنى .
- = تحملنى أنت أيضا مسئولية ماكان.
- الإنسان حمل الأمانة من قديم ولابد أن يكمل حمل مسئوليتها إلى النهاية.
- = أغلقت فى وجهى كل الأبواب.
- الله غفور رحيم، والقنوط من رحمته ألعن من الكفر به.
- = هل تسمح لى أن أحضر الجلسات مع الإخوان، أستغفر وأتوب.
- الخير فى كل مكان.
- = كيف حال الإخوان.
- يسلمون عليك،

إحساسى هو الجنون يا أخى،
ماذا تريدون؟ إحساس على
مقاسكم، لم يعجبكم عقلى
وحكمتى ودينى. ولا يعجبكم
الآن إحساسى، تسمون العقل
بلاهة وتسمون الإحساس
جنونا، ماذا تريدون؟

حضرت أشكو من ألم
أمعانى فشكوتنى فى
وجوده، ثم جنونى أخيرا

ذهبت إلى الطبيب أتخلص
من ألم أمعانى حتى أتزوج،
وهأنذا أتزوج الجنون وأزفة
بلا عروس فى مدينة فضلات
المشاعر وأنقاض الفن، هل
هذا هو العلاج الحديث يا
سيدي يا صاحب صولجان
العلم ولايس عبادة الطب؟،

= ألا فائدة من العودة؟

- لا تكف عن السعى إليه.

= والطريق؟

- الطرق مختلفة والغاية واحدة .

= عميتُ عن كل الغايات يا سيدنا.

- لا غاية إلا وجهه.

= أين وجهه؟

- أينما تولوا فثم وجه الله.

= أين هو؟

- الخير في كل مكان،

= فقدت كل شئ، وأفكر في الانتحار،

- هذا هو الكفر بعينه، وهو جبن لا إصلاح لعواقبه.

= أصبح الموت تحصيل حاصل، مات كل شئ في، ولم يبق إلا جسد متحجر .

- يُحْيِي العظام وهي رميم .

= تتكلم مثل إبراهيم الطيب .

- إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، عليك بالنظر في نفسك.

كأنه هو، الحلقة تضيق ولا مفر من الاستمرار .

كتب عليكم العلاج وهو كره لكم...

ليكن،

ولتصدق نبوعتك يا إبراهيم، هذا هو ما انتظرتَه من سنين إما الجنون وإما الولادة، إما الموت وإما الحياة.

أغْلِقَتِ كل الأبواب وكتب على أن أرفض الحل الرمادي الوسيط.

-9-

شهور طويلة مضت وأنا أعاند الهزيمة، أتلمس أرض الواقع محافظا على كل ذرة من عنف الإحساس وألم الرؤية، شهور طويلة وأنا أرقص فيها على حبل مثل شعرة الصلب يمتد ما بين موت القديم وصحوة حواسي، وبين أمل في الحقيقة وهلع من الاقتراب منها، الحبل مشدود فوق واد من نار الرؤية العارية، يجعل الرعب يتملكني كل لحظة.

- هو أقرب فعلا يا إبراهيم من أي شئ.

= أخيرا!!!

- بل أولا.

ليس سرا، ولكنه أقدس من السر، بساطته تستهوي البسطاء، وعمقه بلا وسيله قد يؤدي إلى الهاوية، ليس لي أن أقول، حتى لو أردت لا أعرف كيف أقوله، ليجاهد كل من يريده حتى يصل إليه بنفسه، وإلا تعرض لخطر التبعية البلاء كما فعلت ردحا من الزمن، ولكن كيف أحبسه فيبدو وكأنه أمر غامض ضخم مع أنه أرق من نسيم السحر، وأوضح من نور الشمس.

أزور إبراهيم وزوجته نجوى بين الحين والحين وتبادل كلمات قليلة نتفاهم في صمت أصدق، أوصيته وزوجته أن يبحثا لي عن زوجة طيبة .

- كم أخاف عليك يا عبد السميع.

= آن الأوان أن أنصحك أنا، لا ينبغي أن تخاف إلا من العمى والضلال، وقد فات أوانهما.

لا غاية إلا وجهه.

= أين وجهه؟

- أينما تولوا فثم وجه الله

فقدت كل شئ، وأفكر في

الانتحار.

- هذا هو الكفر بعينه، وهو

جبن لا إصلاح لعواقبه.

= أصبح الموت تحصيل حاصل،

مات كل شئ في، ولم يبق إلا

جسد متحجر

- هب أنها لم تكن كما تريد .
- = الله يفعل ما يريد، وأنا وسيلته على الأرض؟
- ماذا ستعمل معها يا عبد السميع لو كانت ليست هي؟
- = مثلما فعلت أنت معي يا إبراهيم، أرد لك الجميل فيها.
- كم هو صعب.
- = أنت تقول هذا وأنت سيد العارفين؟
- في الزواج ... يختلف الأمر.
- = وماذا فعلت أنت ونجوى؟
- نحاول باستمرار.
- = لن يثنيني شيء عن الحياة .
- كتبت علينا الحياة ما دمنا أحياء.
- = أعلم ذلك.... وسأصنعها.
- لا أشك في ذلك، صنعت ما هو أصعب.
- = الأصعب أسهل.
- تكاد تسبقتي.
- = العين لا تلو عن الحاجب.
- من العين ومن الحاجب؟، ألم تتب .
- = ...أنا أختبرك.
- وهل نجحت؟
- = أنت أدرى.
- يا ترى يا بن الأشرم!!!....
- = يا ترى يا ابن الطيب.

إليه يصعد الظلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه، عليك
بالنظر في نفسك.
كأنه هو، الحلقة تضيق ولا
مفر من الاستمرار

شهور طويلة مضت وأنا
أعانق الصريمة، أتلمس أرض
الواقع محافظا على كل ذرة
من مخزون الإحساس وألم
الرؤية

إرتباط كامل النص:

www.arabpsynet.com/Rakhaw/RakD070718.pdf

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي وقبلي بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsynet.com/> <http://www.arabpsyfound.com>

ش.ع.ن: إنجازات اربعة عشرة عاما من النجاح "

(التأسيس العام 2000 الاطلاق على الويب العام 2003)

الكتاب السنوي الخامس

تحميل الكتاب

- التحميل من موقع " شبكة العلوم النفسية العربية"

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

اشترائكم اذت الدائم هي اصدارات الشبكة

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

خدمات الاعلان بالمتجر الإلكتروني

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=39&controller=category&id_lang=3